اضيف عدد مدافع الهاون الثقيلة العضوية (١٢٠ و ١٦٠ ميليمتراً) وراجمات الصواريخ متعددة الفوهة (كتيبتان)، لأصبح مجموع السبطانات المتوفرة للرماية على بيروت ٧٠٠ ـ ١٠٠٠. ولعل الرقم ٤٢٠٠٠ قذيفة مبالغ به، لكنه لم يكن مستحيلاً، او مدعاة للتندر، كما ادعى الكاتبان، بل ان الكاتب العسكري الاميركي الشهير، انطوني كوردزمان، قدم مثالاً يدل على امكان تحقيق معدلات رمي تضاهي القصف الاسرائيلي وتؤكد صحة التقديرات العربية، حين أوضح ان مليون قذيفة كانت تطلق في بعض أيام حرب الخليج من قبل الجانبين (انطوني كوردزمان، **حرب الخليج وامن الغرب، ١٩٧٤ ـ ١٩٨٧** (بالانكليزية)، لندن: جينز، ١٩٨٧).

وحين تلاعب المؤلفان باحصاءات الخسائر المدنية العربية واستهلاك الذخائر الاسرائيلية خلال حرب العام ١٩٨٢، لم يشككا بالارقام فحسب، بل وحاولا تبديد صورة المعتدي الآثم الاسرائيلي. وحاولا تعزيز هذا التلفيق حين القيا مسؤولية الخسائر المدنية على م.ت.ف. اذ نقرأ ان سكان المدن والبلدات، كمخيم الرشيدية، كانوا «رهائن» لدى م.ت.ف. (ص ١٠٥). والاغرب هو وصف الفلسطينيين الذين دافعوا عن منازلهم في عين الحلوة ـ التي دمرتها النيران الاسرائيلية ـ بأنهم «متطرفون»، لأنهم اصروا على القتال حتى الشهادة (ص ١٢١). فهل كان المؤلفان سيلقبان اليهود الذين دافعوا عن حي وارسو ضد الغزاة الالمان بالمتطرفين، قياساً بذلك المعيار ؟

أما الاساءة الاخيرة، فاننا نجدها عند مراجعة احداث مجزرة صبرا وشاتيلا. فالحق يقال ان دوبوي ومارتيل أكدا، بلا مراوغة، انه «لا يمكن صرف المسؤولية الاسرائيلية عن المجزرة بالقول انها كانت ' غير مباشرة ' ... اذ كان هناك عدد من الاسرائيليين ممن... تحمّلوا اكثر من مسؤولية غير مباشرة» (ص ١٩٢). ويشعر القارىء بأنه لو وقف المؤلفان على اسوار المدينة الرياضية، التي احتلها العدو في اثناء المجزرة ووفرت له رؤية مباشرة لأزقة المخيم، لربما اعترفا بقدرة الجنود الاسرائيليين على سماع صرخات الضحايا ومشاهدة الاعدامات الجماعية على الطريق، على مرمى حجر. ولم يتوقف المؤلفان عند هذا الحد، بل اعتبرا المجزرة مجرد «حدث اضافي في المسلسل التراجيدي لجرائم القتل والمجازر والانتقام والابادة [كذا] التي طالما تكررت في لبنان منذ قرون عديدة»، واعتبرا ان الكتائبيين «كانوا يفعلون فقط ما فعلته م.ت.ف. بعائلاتهم وزملائهم» (ص ١٩٢). أي اختلاق هذا ؟

ثمة سمة مزعجة ومريبة في هذا الكتاب، ظهرت، بوضوح، في الخاتمة. فالفصل الاخير تفاوتت المستويات في انجازه. فهو تبنّى نظرة أكثر اتزاناً لوضع لبنان وللنزاع العربي ـ الاسرائيلي، وهذا يؤدي الى شعور دفين بأن ذنب دوبوي ومارتيل هو سوء الحكمة والجهل اكثر من التحريف المتعمد والانحياز. لكن لا يمكن انكار التردي الشديد لمستوى البحث، ولتدخل المواقف التقويمية المستمر، التي تحل محل الحقائق. وهذه الحالة تجسّدت في الميل الاخير الى الزعم ان «الاتحاد السوفياتي رأى بالسيطرة السورية على لبنان منبراً للقفز الى التفويض السوفياتي» (ص ٦٤).

على أي حال، اذا اريد لهذا الكتاب ان يكمل التاريخ العسكري الذي بدأ دوبوي بتسجيله في «النصر صعب المنال...» السابق، فانه يقصر عن هدفه تماماً. ويغيب القسط الاكبر من النشاط العسكري الاسرائيلي في لبنان عن النص، مما يدحض لقب «التاريخ العسكري»؛ علاوة على ذكر وجود دراسات وروايات افضل، كثيرة، قدمها كتاب آخرون. اما اذا اراد المؤلفان تقديم تحليل سياسي ـ عسكري متكامل، فقد تركا ثغرات فادحة، وخطوطاً غير مكتملة، ونسباً غير متناسبة. لذلك، فان القارىء ينتهي بلمحات مجزأة من المعرفة عن لبنان واسرائيل والمشكلة الفلسطينية والنزاع العربي ـ الاسرائيلي ـ وكلها موضوع كتب شيقة ومفيدة لشيف وبعري وغابرييل والخالدي وبتران وراندال وعفرون ورابينوفيتش وغيرهم.

د. يزيد صايغ